الآيات من 138 - 141

صبغة الإيمان وأثره في النّفوس والعبوديّة لله تعالى

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدون ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُون ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُون ﴿١٤١﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (١٣٨): قال ابن عبّاس: إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولد، فأتى عليه سبعة أيام، صبغوه في ماء لهم، يقال له: المعموديّ، ليطهّروه بذلك، ويقولون: هذا طهور، مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك، صار نصرانيًّا حقًّا، فأنزل الله هذه الآية.

المعنى العام

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدون ﴿١٣٨﴾﴾.

قال الحقّ ﷻ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ أي: أهل الكتاب إيمانًا مثل إيمانكم، فقد اهتدوا إلى الحقّ والصواب، وإن أعرضوا عن ذلك فاتركهم حتّى نأمّرك فيهم، فإنّما هم في شقاق وخلاف لك، فلا تهتمّ بشأنهم، فسيكفيكهم الله أي سيكفيك شرّهم وينصرك عليهم، وهو السميع لدعائكم، العليم بإخلاصكم، فالزموا ﴿صبغة الله﴾ دين الله، وفطرته التي فطر النّاس عليها، وانتصاب ﴿صبغة الله﴾ إمّا على الإغراء كقوله: ﴿فطرة الله﴾ فالزموا صبغة الله التي صُبِغتم بها، وهي الإيمان بما ذكرت لكم، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ أي لا أحد أحسن منه تعالى صبغة، وقولوا ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدون﴾ ولو كره المشركون..

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُون ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُون ﴿١٤١﴾﴾.

يقول تعالى مرشدًا نبيّه ﷺ إلى درء مجادلة المشركين: قل يا محمّد لأهل الكتاب ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللهِ﴾ أتناظروننا وتخاصموننا في توحيد الله والإخلاص له، والانقياد واتّباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرّف فينا وفيكم، المستحقّ لإخلاص الألوهيّة له وحده لا شريك له، وتقولون: أنتم أولى به منّا، بل لا يختصّ به واحد دون آخر، ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾ نتقرّب بها إليه، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تتقرّبون بها أيضًا، ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُون﴾[1] أي: نحن براء منكم كما أنتم براء منّا فكيف تختصّون به دوننا ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُون﴾ في العبادة والتّوجّه إليه في أعمالنا وقلوبنا دونكم فإنّكم أشركتم به غيره.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤١.

ثمّ أنكر تعالى عليهم في دعواهم أنّ إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط، كانوا على ملّتهم فقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ﴾ أي إن قلتم: إنّ الأنبياء كلّهم منكم وعلى ملّتكم، أي ﴿كَانُواْ هُودًا﴾ على دينكم يا معشر اليهود، ﴿أَوْ نَصَارَى﴾ على ملّتكم يا معشر النّصارى، فقد كذّبتم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾ وقد نفى الأمرين معًا عن إبراهيم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ وقال ﷻ: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ﴾[1]، وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدّين، فليسوا يهودًا ولا نصارى، فكيف تدّعون أنّهم كلّهم منكم، وعلى دينكم؟! وأنتم تشهدون أنّهم لم يكونوا على دينكم؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ﴾ وهي شهادة الحقّ لإبراهيم بالحنيفيّة، والبراءة من اليهوديّة والنّصرانيّة، أي: لا أحد أظلم منه، ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد شديد، أي إنّ علمه محيط بعملكم وسيجزيكم على النّقير والقطمير، فإن اعتمدتم على نسبكم إليهم فقد اغتررتم.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ تلك أمّة قد مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ لا ينتفع به غيرها، ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ لا ينفعكم غيره، ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ولا تُسألون عن عملهم كما لا يُسألون عن أعمالكم، ولا تغترّوا بمجرّد النسبة إليهم، حتّى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله، واتّباع رسله الذين بُعثوا مبشّرين ومنذرين، فإنّه من كفر بنبيّ واحد فقد كفر بسائر الرّسل.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. الدين عند الله هو الإسلام وهو دين جميع الانبياء، أمّا اليهوديّة والنصرانيّة فهي بدعة ابتدعها اليهود، فهم الذين حرّفوا دين سيّدنا موسى عليه السلام ومن ثمّ حرفوا دين سيّدنا عيسى عليه السلام.

٢. الإسلام هو دين الفطرة وهذه الفطرة هي صبغة الله التي صبغ الناس عليها كما قال ﷺ: «كُلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»[2] فإنّه شبّه تغيير الفطرة بجدع البهيمة الجمعاء، ومعلوم أنّهم لم يغيّروا قبوله، ولو تغيّر القبول وزال لم تقم عليه الحجّة بإرسال الرّسل وإنزال الكتب، بل المراد أنّ كلّ مولود فإنّه يولد على محبّته لفاطره، وإقراره له بربوبيّته وادّعائه له بالعبوديّة. والصّحيح ما دلّ عليه القرآن والسنّة أنّهم ولدوا حنفاء على فطرة الإسلام، بحيث لو تركوا لكانوا حنفاء مسلمين، كما ولدوا أصحّاء كاملي الخلقة، كما قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربّه: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ».

٣. الحسن ما حسّنه الشّرع، والقبيح ما قبّحه الشّرع، وهو الإسلام أي ما يوافق الفطرة، مثال: أن يغار الزّوج على

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٣٥٩، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبيّ فمات، هل يصلّى عليه.

زوجته وابنته وعرضه، وأن يرغب الرّجل بالزّواج، والمرأة بإنجاب الأطفال.

٤. صبغة الله أي دينه الذي طهّرنا به ظاهرًا وباطنًا، فظهرت آثاره علينا كما يظهر أثر الصّبغ على الثّوب المصبوغ.

٥. المطلوب ممن دخل في الإسْلام أن يغتسل غسلًا كغسل الجنابة إذ هذا من صبغة الله تعالى، لا المعموديّة النصرانيّة التي هي غمس المولود يوم السابع من ولادته في ماء يقال له المعموديّ.

٦. والإشارة أنّ العبرة بما وضع الحقّ لا بما جمع العبد، فما يتكلّفه الخلْقُ فإلى الزّوال مآله، وما أثبت الحقُّ عليه الفطرة فبإثباته العبرة، فلو أعدّه عاد ولو بعد عشرات السّنين.

٧. إنّ للقلوب صبغة وللأرواح صبغة وللأسرار صبغة وللظّواهر صبغة. صبغة الأشباح والظواهر بآثار التّوفيق، وصبغة الأرواح والسّرائر بأنوار التّحقيق.

٨. تغيير الفطرة التي فطر الله النّاس عليها هو هدف الشّيطان والدّجال. قال تعالى حكاية عن الشّيطان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[1].

٩. فضيلة الإخلاص وهو عدم الالتفات إلى غير الله تعالى عند القيام بالعبادات.

١٠. كل امرئ يجزى بعمله، وغير مسؤول عن عمل غيره، إلّا إذا كان سببًا فيه.

١١. تفاوت الظلم بحسب الآثار المترتّبة عليه.

١٢. حرمة كتمان الشهادة لا سيّما شهادة من الله تعالى.

١٣. عدم الاتّكال على حَسَبِ الآباء والأجداد، ووجوب الإقبال على النفس بتزكيتها وتطهيرها بالإيمان الصحيح والعمل الصالح.

١٤. الحرص على أن يكون الأذان أوّل ما يسمعه المولود عند نزوله من بطن أمّه، ذلك أنّ الشّيطان يكون بالمرصاد للطّفل ليستقبله، فيؤذّن له قبل أن يمسّه الشّيطان، فيهرب، ولا يمسّ الطّفل بإذن الله؛ لذا يُسنّ الأذان في أذن المولود أوّل ما يولد، عَنِ ابْنِ عبّاس رضي الله عنهما، أَنَّ النّبيّ ﷺ: **"أَذَّنَ فِي أُذُنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ يَوْمَ وُلِدَ، فَأَذَّنَ فِي أُذُنِهِ الْيُمْنَى، وَأَقَامَ فِي أُذُنِهِ الْيُسْرَى"**[2] فيكون أوّل ما يسمعه الطّفل وحدانيّة الله تعالى، فيدخل في قلبه أنّ الله واحد أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

١٥. كلّ مولود يحبّ الخير ويحبّ فاعله، ويحبّ العطاء ويحبّ الرّحمة ويأنس بذكر الله، ويكره فعل الشّرّ ويكره فاعله.

وجود الخالق حقيقة ثابتة والشعور به أمر فطري في الأنفس ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾:

أوّل شعور يشرق في أعماق الإنسان عندما يتأمّل في نفسه وفي الكون من حوله هو شعوره بوجود من هو موصوف بقوّة كبرى مهيمنة على الكون، يمنحه التّدبير والتنظيم، ويتصرّف فيه بالحياة والموت، والبناء والفناء، وكلّ أنواع التّغييرات الحكيمة التي تجري فيه.

إنّ الإنسان يشعر بهذه الحقيقة ويؤمن بها إيمانًا عميقًا، سواء استطاع أن يثبتها بالدليل البرهانيّ أو لم يستطع. فدليل الفطرة والبداهة هو شاهد حقيقيّ يسبق الشّواهد النّظريّة، وقد يكون أدقّ وأصدق منها.

---

(١) سورة النساء، الآيات: ١١٩- ١٢١.

(٢) رواه البيهقيّ في شعب الإيمان، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ٨٢٥٥، كتاب وباب: حقّ السادة على المماليك.

فالسلامة الفطريّة وصفاء الإحساس الخفيّ هما من أهمّ الوسائل في شعور الإنسان بالكثير من البديهيّات. ومع تقدّم العلوم واكتشافاتها، لا تضيف لنا أكثر ممّا توصّلنا إليه بفطرتنا.

فمن أمثلة ذلك:

- اِنسياق الطّفل حديث الولادة بفطرته الأولى إلى ارتضاع ثدي أمّه، دون أن يتعلّم ذلك من معلّم، ودون أن يدركه بدليل عقلي، أو حسٍّ ظاهر.
- والأمّ تشعر بعاطفة الأمومة، سواء علمت أنّ السّرّ في ذلك حفظ الطّفل بالرّعاية والتّربية حتّى يصبح قادرًا على الاستقلال بنفسه، أو لم تعلم.
- كما أنّنا جميعًا مسوقون بإحساس الفطرة والغريزة إلى مطالب عيشنا، ولو لم ندرك الغرض من وراء هذا الإحساس. إنّنا نحسّ بالجوع فنأكل، سواء علمنا أنّ الأكل وسيلة من وسائل حياتنا، أو لم نعلم. ونحسّ بالبرد فنتّخذ الوقاية منه، سواء عرفنا أنّ البرد عامل من عوامل الهدم في بناء جسدنا، أو لم نعرف. ونحسّ بالشّهوة للحموض مثلًا، دون أن نعلم بأنّها ضروريّة لجسمنا، لتحلّل المواد الكلسيّة وغيرها من المعادن في الأطعمة، كي تتمثّل في أجسامنا تمثّلًا صحيحًا.
- ونشعر بوجود روح فينا **(وهي سرّ حياتنا)** فندافع عنها، ونحرص على بقائها، دون أن نحسّ بها بإحدى حواسّنا الظّاهرة، وقد لا يستطيع الكثير من النّاس أن يقيم البرهان على وجودها، وعلى الرّغم من ذلك، فهو يشعر بها، ويعتقد بوجودها.
- ثمّ ألسنا نشعر في داخلنا بالعواطف والوجدانيّات: كالحبّ والبغض، والرّغبة والكراهية؟!

فما الدّليل على وجودها فينا وهي متغلغلة في داخلنا؟!
هل نستطيع أن نقيم عليها دليلًا أكثر من شعورنا بها، وهي حقّ لا شكّ فيه؟!
إنّنا نشعر بالشّهوة، ونشعر بالألم، فهل نستطيع أن نثبت ذلك بأكثر من شعورنا به؟!
إنّ الشعور بها دليل على وجودها، ولكن كيف هي موجودة؟
هذه بعض الأمثلة، وهناك أمثلة أخرى وغيرها لا تكاد تستقصى.

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الفطرة، وهذه الإحساسات العميقة فينا، لم توجد فينا عبثًا، بل هي فطرة صادقة موافقة للواقع الكونيّ، وموافقة لحاجاتنا. ومهما تقدّم العلم فلن يستطيع الغضّ من أمر هذه الفطرة، ولن يستطيع إهمالها أو الاستعاضة عنها إلا قليلًا، ما لم تكن الفطرة في الإنسان شاذّة أو مريضة، والمريض الشّاذّ يجب علاجه.
والفطرة لا تنطمس إلا في نفس مَنْ بالغ في الانحراف من النّاس بدافع لا أخلاقيّ، ليرضي شيئًا في نفسه، فغشّى على مرآة فطرته الصّافية، وشدّ عصائب الجهل والعناد على حسّه المضيء. وهكذا فقد تظلِم مرآة الفطرة في الإنسان، بدخان نار الشّهوات، وبعض الغرائز النّفسيّة العاتية المستكبرة، أو بسحب الشّكوك الماديّة، فتختفي عنها بعض الحقائق الظّاهرة في الكون.

وعند ذلك تدعو الضّرورة إلى إقامة الأدلّة النّظريّة، ليُزال بها عن طريق العقل الظّاهر، ما غُشِّي على مرآة الفطرة

بظلمات الشّهوات، والغرائز النّفسيّة، والشّكوك الماديّة. ونستطيع أن نُسمّي هذه العوارض الطارئة على مرآة الفطرة **(أمراض الحاسّة الفطريّة)**.

ومن هذه الإحساسات الفطريّة الصادقة فينا، إحساس الإنسان بوجود الخالق وتلهّفه دائمًا لمعونته وإمداداته، وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير- في نظامه وإتقانه، وما فيه من إبداع، وحياة وموت - إلى قدرته وعلمه وحكمته سبحانه.

إنّه شعور فطريّ تشترك بالإحساس به جميع الخلائق المدركة، على اختلاف نزعاتها، ومستويات ثقافاتها. وهو شعور مشترك بين جميع النّاس، يقوم في نفس الطّفل الصغّير، والإنسان البدائيّ، والإنسان المتحضّر... كلّ هؤلاء يشعرون بشعور مشترك أنّ الله حقّ، وأنّه صاحب القوّة القابضة على ناصية كلّ شيء، العالِم بكلّ شيء، وهو الحكيم المريد لا شكّ فيه.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١)

اتّخذ أهل السنّة والجماعة هذه الآية قاعدة فيما يتعلّق بشرع ما قبلنا وبالخلاف الذي وقع بين عليّ ومعاوية ﷺ تجنُّبًا للخوض في هذه المسألة التي شابها الكثير من الأكاذيب والأباطيل، بأسانيد واهية، دون أدلّة قاطعة.

في الأمر والنّهي

- **العمل بالآيات:**

اعلنِ الحقّ للنّاس، وأظهرِ التزامك به؛ فهو أدعى للثبات عليه، وقبول النّاس له ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

في الأخلاق والآداب

في السّيرة والشّمائل

عن زَارِعٍ - وَكَانَ فِي وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ - قَالَ: "لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَجَعَلْنَا نَتَبَادَرُ مِنْ رَوَاحِلِنَا، فَنُقَبِّلُ يَدَ النَّبِيِّ ﷺ وَرِجْلَهُ، قَالَ: وَانْتَظَرَ الْمُنْذِرُ الْأَشَجُّ حَتَّى أَتَى عَيْبَتَهُ فَلَبِسَ ثَوْبَيْهِ، ثمّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ، الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَم اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا» قَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ"(٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤١.

(٢) رواه أبو داود في سننه، عن زارع، حديث رقم: ٥٢٢٥، كتاب: الأدب، باب: في قبلة الرجل، الحديث حسن لغيره.

وعن أَبي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ مُوسَى: وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلٌ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِهِ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ: فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الآخَرِ خَمْرٌ، فَقَالَ: اشْرَبْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ: أَخَذْتَ الفِطْرَةَ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ»[1].

أيّ أنّك يا سيّدنا محمّد أصبت الاستقامة، واخترتَ علامة الإسلام، وإنّما كان اللّبَن علامته؛ لأنّه سهلٌ طيّبٌ طاهرٌ نافعٌ للشّاربين سليمُ العاقبةِ، وأمّا الخمر فإنها أُمُّ الخبائث جالبةٌ لأنواع الشُّرور في الحالِ والمآلِ. وفيه أنّ الأُمة تابعةٌ له فحيث أصابَ الفِطْرة فهم يكونون عليها.

في السّلوك

الإشارة: الفطرة التي خلق آدم عليها، أنّها تسعد بالتّخلّق بأسماء الله، وأورثت ذلك في أرواح ذريته من الأنبياء والأولياء، ثمّ قال: وسقاها من شراب الزّلفة، وألهمها خصائص علوم الربوبيّة، فاستنارت بنور المعرفة، وخاضت في بحر الربوبيّة، وخرجت منها تجلّيات أسرار الوحدانيّة، وتكوّنت بصبغ الصّفات.

الإشارة: كيف تصحُّ محاجّة الأجانب وهم تحت غطاء الغيبة، وفي ظلال الحجبة. والأولياء في ضياء الكشف وظُهْر الشّهود؟ ومتى يستوي حال من هو بنعت الإفلاس بِغَيْبَتِهِ مع حال من هو حكم الاختصاص والإخلاص لانغراقه في قُرْبَتِه؟ هيهات لا سواء!

كلّ من أقامه الحقّ في وجهة، ووجّهه إليها، فهو عامل لله فيها، قائم بمراد الله منها، وما اختلفت الأعمال إلا من جهة المقاصد، وما تفاوت النّاس إلا من جهة الإخلاص. فالخلق كلّهم عبيد للملك المجيد، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الإخلاص. فمن كان أكثر إخلاصًا لله كان أولى من غيره بالله، وبقدر ما يقع للعبد من الصّفاء يكون له من الاصطفاء، فالصّوفية والعلماء والعبّاد والزّهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم كلّهم عاملون لله، ليس أحد منهم بأولى من غيره بالله إلا من جهة الإخلاص وإفراد القلب لله، فمن ادّعى الاختصاص بالله من غير هذه الوجهة فهو كاذب، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور، يقال له: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

في الإعجاز العلميّ

قال سبحانه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

الصبغة هي الفطرة التي خلق الله تعالى عليها الناس وهو الدين الذي شرعه الله لهم.

معنى الصبغ: ما يصبغ به وما يؤتدم.

أمّا معنى صباغ الدم في الطبّ: المادّة التي تسبّب لون الدم.

قال قتادة: إنّ اليهود تصبغ أبناءها يهودًا، والنصارى يصبغون أبناءهم نصارى، وإنّ صبغة الله الإسلام هو دين الله الذي بعث به نوحًا ومن كان بعده.

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٣٣٩٤، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وهل أتاكَ حديثُ موسَى﴾.

وكأنّ لفظ صبغة ورد بطريقة المشاكل، لأنّ النصارى كانوا يغمسون من ولد منهم من ماء المعبوديّة ويزعمون أنّهم يطهّرونهم بذلك، فقيل للمسلمين: إلزموا صبغة الله فإنّها أطهر؛ أورده ابن حجر العسقلانيّ.

وأخرج ابن مردويه والضياء في "المختارة" عن ابن عبّاس عن النّبيّ ﷺ قال: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: يَا مُوسَى هَلْ يَصْبُغُ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: اتَّقُوا اللهَ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا مُوسَى سَأَلُوكَ هَلْ يَصْبُغُ رَبُّكَ. فَقُلْ: نَعَمْ: أَنَا أَصْبُغُ الْأَلْوَانَ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ، وَالْأَلْوَانُ كُلُّهَا مِنْ صِبْغَتِي. وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾».

سبق الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم علوم الوراثة في الكشف عن الفروق الجوهرية بين صبغيات الذكر والأنثى من خلال هذه الآية: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

ما الحقيقة العلميّة المرتبطة بالنصّ المعجز؟

نشر الدكتور والتر كوينر الذي يعمل في مستشفى توماس في لندن في كتابه الغلاف البشريّ نتائج أبحاثه عن قدرات الجسم البشريّ يقول: إنّ جسم الإنسان يبثّ موجات كهرومغناطيسيّة ذات أطوال لا يراها معظم الناس، وتمّ التدليل عليها عند رصد الأورام بالالتهابات والأعصاب والسرطان بشكل حيّ عن طريق الأسلوب الحديث للتصوير الحراريّ الذي يحوّل الإشعاعات إلى صور ملوّنة كمساحات معزولة ساخنة، فذرّات الجسم بحركتها الدائمة تولّد أشعة تحت الحمراء.

ما تفسير اختلاف هذه الألوان بين خلايا جسم الإنسان ؟

ردّ اختلاف ألوان خلايا جسم الإنسان إلى تباين التردّدات الكهرومغناطيسيّة أو الذبذبات الحيويّة المنبعثة منها، حيث أثبتت الدراسات السوفياتيّة أنّ الخلايا تتواصل فيما بينها ذاتيًّا عبر هذه الذبذبات.

إذ تحتوي كلّ خليّة بشريّة على كروموسومات (صبغيّات) تحمل المعلومات الوراثيّة، وهي مسؤولة عن اختلاف ألوان الخلايا. تشعّ هذه الخلايا طاقة حيويّة لا تُرى بالعين المجرّدة، وتظهر الكروموسومات بلمعان مختلف أثناء الفحص المجهريّ. تستخدم أصباغ خاصّة مثل كوانوكير وغنسا منذ السبعينات لتحديد الكروموسومات ودراسة الوراثة.

تلعب الصبغيّات دورًا رئيسيًّا في نشاط الخليّة، إذ تصدر التعليمات للأعضاء وتحمل الشفرات الوراثيّة الخاصّة بكلّ خليّة. تعتمد الوراثة على الجينات، التي تُعدّ وحدات وراثيّة مستقلّة. ويشارك الحمض الأمينيّ "التيروزين"، الناتج عن استقلاب "الفينيل ألانين"، في إنتاج الصبغ المسؤول عن تلوين الخلايا. العلم الحديث اكتشف "الكروموسومات" أو "الصبغيات" في أعمق نقطة في الإنسان في نواة الخلية. وهي التي تصبغ الإنسان بصفاته الوراثية. هذه الصبغيات هي التي ترسم لون عينك، وطولك، وشكل وجهك، وحتى طباعك. ومليارات المعلومات كتبها الله في جيناتك ورتبها حتى صرت إنسانا. فكأن القرآن سبق العلم بـ١٤٠٠ سنة حين قال: "صبغة الله".

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.